**المحاضرة الثالثة:**

**حركة الإحياء الشعري في المشرق**

**(في ظل علاقات التأثير والتأثر)**

**توطئة:**

هكذا وبناء على ما تضمنه المدخل بتركيزه على المعطى اللغوي وأهميته في التأسيس للفعل الإبداعي فإن المتأمل فيحال الشعر العربي الحديث يتبيّن ارتباطه ببنية تقليدية كان للتراث الشعري القديم حضورها في رسم معالم النص الشعري الحديث بامتداده الزمني وحضوره الفني الذي تمظهر في إيلاء اللغة الأهمية التي تنأى بها عن مستوياتها الإفهامية المتعارف عليها لدى العوام.

لقد الاهتمام باللغة وجزالة اللفظ وشرف المعنى والتئام النسيج؛ لهذا تميزت القصيدة الإحيائية وفقا لهذه النظرة البنائية بمراعاة قوة الإيقاع وجزالة اللفظ عودة بالشعر إلى جوّ من القداسة بما هو جزء من ميراث الأمة وتاريخها القومي.

هكذا يمثل هذا الاهتمام وسيلة من وسائل الحرص على محاولة النهضة بالشعر العربي بعد وهدته في عصر الضعف، فكان من الواجب، والحال هذه، أن يحظى الشعر بالمنزلة نفسها التي كان يحظى بها فيما سبق، لذا سعى الشاعر الحديث للمحافظة على موروث الماضي والتمسك باتباع القدامى والنسج على منوالهم تشبها بهم وسيرا على منوالهم، لذا بدأ الشعر، بوصفه واقعة جمالية، يتطلع إلى التغيير بل سيكون في طليعة المجالات التي مسّها شيء من التحول في القرن التاسع عشر وإن لم يكن بالحجم المتوقع[[1]](#footnote-2) مقارنة مع واقع المجتمع ومتطلباته بحثا عن إسهام للشعر في معالجة قضاياه المصيرية.

**مفهوم القصيدة الإحيائية:** إنّ القصيدة في أبسط تصور لها مجموعة من الألفاظ مرتبطة ومنسقة على نحو معين، وحين تتكوّن على هذا النحو تكتسب شخصية مستقلة لها حيويتها ولها فعاليتها، وهذا الارتباط الخاص للألفاظ هو الذي ينشئ العلاقات الجديدة التي تتمثل لنا في صور التعبير المختلفة، التي تظهر في الكتابة الشعرية[[2]](#footnote-3). غير أنّ مفهوم القصيدة الإحيائية لم يكن يشي في توجهاته الفنية بتلك الاستقلالية المأمولة، بالنظر إلى تأسسه على سعي فئة من الشعراء للمحافظة على الشعر العربي في تشكيل نصوصه واختيار ألفاظها وعباراتها وموسيقاها، وما يمكن التنويه به ابتداءً هو أن بعض الدارسين يفضلون مصطلحات أخرى مقابل مصطلح (القصيدة الإحيائية) من قبيل القصيدة الكلاسيكية أو المحافظة، ولكلٍ حججه في اختيار هذا المصطلح أو ذاك، تبعا لخصوصية مرجعياته المعرفية وخلفياته الفكرية، ومع ذلك يستشف الدارس أن المصطلح من حيث دلالته لا ينفصم عن علاقات التأثير والتأثر التي تحكم توجه الشعراء العرب المحدثين في سعيهم لإحياء التراث الشعري القديم.

**المعطى اللغوي في القصيدة الإحيائية:**

يرتبط البناء اللغوي في القصيدة الإحيائية بالقاموس اللغوي، فاللغة تأسيسا على تموقعها الفني تنأى عن وضعها السكوني كما هو عليه في نظامها القار؛ إذ تستنفر طاقتها الكامنة في مستوياتٍ متضافرةٍ تتواءم وطبيعة النص وآليات اشتغاله؛ فيقال لغة السرد، لغة الأدب، لغة الصحافة، وغيرها من الأمثلة التي جرت بها عادة المستعملين في حيواتهم، ولا فكاك حينئذ من أن يتمخض عن هذا التعدد، إثراءً له وإسهامًا فيه، جملةُ أساليب متنوعة، تسعى اللغة من خلالها "إلى فتح العالم الذي يحمل كل روابط الانتماء وغلقه على مستوى الكتابة، حتى يستجمع هذا العالم معناه، ثم تضمين هذا المعنى حقيقة ما؛ فالمعنى الذي تدفعه اللغة عبر تعبيريتها هو معنى حاضر بنفسه يتمظهر ليقول شيئا ما، هذا الشيء الكامن يقوله صمت اللغة"[[3]](#footnote-4)(1)، بما هي ظاهرة معقدة يتميز بها الكائن البشري عن سائر المخلوقات الأخرى؛ فهي "تمثل نظاما رمزيا اصطلاحيا للدلالة والتعبير والتواصل"[[4]](#footnote-5)(2)، والسلوك اللغوي، بهذا المعنى، نتاج عمليات التعلم التي تحدث جراء تفاعل الفرد مع بيئته الاجتماعية وتنشئتها وأساليب تربيته وتوجيهها. ويرتبط اكتساب المرء للغته الأم منذ طفولته "بإدراك العالم حوله من خلالها ومهما كان العالم حوله غنيا؛ فهو لن يدرك إلا الظواهر التي لها مسميات في هذه اللغة التي تصنف له ما يبصره ويسمعه [...] وتفرض عليه تصورات معينة لما حوله"[[5]](#footnote-6)(3)، تسهم الجماعة في إبقائها حية بوساطة اللغة، فهي تحفظ لهم بعض الأحداث التي لا يستطيعون تثبيتها في الذاكرة الجماعية؛ ليظل معنى اللغة خلال الحياة "عميق الجذور في العمل ومعبرا عن الإحساس.

أما الوظائف الإدراكية للغة واستعمالها وسيلة لتحليل الصورة المدركة للعالم الذي حولنا وتركيبها ووسيلة لتكوين الفكر؛ فهذه تثبت ببطء مع التبادل اللغوي بين الفرد والجماعة"[[6]](#footnote-7)(4)، الذي تتوسع دوائر امتداده كلما ارتقينا في المراحل المعرفية الأكثر تجريدا، "بانتقال الطفل من الأنا غير الواعية بذاتها، إلى الفهم المتبادل للشخصية، ومن اللاتمايز الفوضوي في الجماعة إلى التمايز القائم على التنظيم المنضبط تنتقل من اللغة الأنوية إلى اللغة الاجتماعية"[[7]](#footnote-8)(2)، في تأكيد على تحول وظيفتها من نطاق الفرد إلى نطاق المجتمع، وما تتطلبه من عمليات تواصل بدونها لا تحقق اللغة دورها المنوط بها الذي يرمي إلى إعادة بناء ذكريات الفرد والحفاظ على جانب واسع من خبرته التي يكونها عن طريق تأشيره اللفظي الخاص؛ فاللغة إذن أداة للاتصال، وظاهرة اجتماعية لعلاقتها بوجود الإنسان ذاته، حين يسعى للحفاظ على بقائه "متكلما، فهو على الدوام بحاجة ماسة إلى لغته كي ينتقل من وجوده إنسانا إلى وجوده متكلما، فحياته رهن بما يقول، فكأنه نطفة لغوية مخلقة وغير مخلقة، لا يستوي خلقا كمالا إلا في رحم اللغة التي يبدع فيها"[[8]](#footnote-9)(1)؛ إنها بما تمثله من نظم وأساليب وأهمية "عبقرية اللغة؛ وهي مجموعة الصفات والخصائص التي تتميز بها لغة عن أخرى، وتتحدد هذه الصفات في نحو اللغة وصرفها وتركيب عباراتها وتطور نظامها الصرفي [...] وهناك أيضا الناحية الفنية؛ وهي ما يمكن أن يسمى ذوق اللغة، وبهذه الإمكانيات تعيش اللغة في المجتمع، وتتفاعل معه وتؤدي حاجته الفكرية والروحية"[[9]](#footnote-10)(2). ولمّا كان النص الشعري الحديث نظاما لسانيا؛ فإنه ينبني على مفاهيم وتصورات وأفكار لها إحالات مرجعية، بعبارة أخرى؛ يتسامى هذا النص بلغته عن اللغة العادية، بفضل علائقه الداخلية؛ التي تتفاعل وفق آليات اشتغال خاصة، وعلائق خارجية تشدّ النص إلى شروط تداولية مميزة، تجعل من عملية نقل النص من مستواه الفكري إلى مستواه الخطي الملموس مبنيا على ما يصطلح عليه أسلوبيا بالإضافة (Addition)؛ التي هي "حقيقة واقعة لا بد للقارئ أن يتعامل معها، بما تحمل من تأثيرات وجدانية تتجسد في الشحن العاطفي، الذي تحمله اللغة في ثناياها، وهو عنصر لا يمكن إغفاله أو إهماله؛ لأنه عنصر يحقق الجذب للنص والالتفات إليه والاندهاش به"[[10]](#footnote-11)(3).

وعليه لا يبدو مستغربا اهتمام الشعراء بالأبعاد الفنية للغة وإدراكهم لدورها الفاعل في بناء القصيدة وإضفاء جمالية على مبناها وفق معمار خاص قائم على نظام الشطرين سيرا على هدي الشعراء القدامى.

1. - ينظر: عباس بن يحي: مسارات الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص42. [↑](#footnote-ref-2)
2. - ينظر: عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، ، ط08، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د/ ت ص 85. [↑](#footnote-ref-3)
3. (1)عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ص55. [↑](#footnote-ref-4)
4. (2) رافع النصير الزغلول، عماد عبد الرحيم الزغلول: علم النفس المعرفي، ص219. [↑](#footnote-ref-5)
5. (3) كريم زكي حسام الدين: الزمان الدلالي، ط02، دار غريب للطباعة ، القاهرة، مصر، 2001، ص117. [↑](#footnote-ref-6)
6. (4) م. م. لويس: اللغة في المجتمع، تر: تمام حسان، د/ ط، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2003، ص38. [↑](#footnote-ref-7)
7. (5) عمر أوكان: اللغة والخطاب، ص24. [↑](#footnote-ref-8)
8. (1) عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، ص431. [↑](#footnote-ref-9)
9. (2) عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، ط01، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ص279. [↑](#footnote-ref-10)
10. (3) موسى ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط01، دار الكنـدي للنشر والتوزيع، إربـد، الأردن، 2003، ص24. [↑](#footnote-ref-11)